ملامح الخطاب النهضوي في فكر الطيب العقبي

د. محمد زرمان.

أستاذ الفكر الإسلامي والدراسات القرآنية- جامعة باتنة-

شهدت الجزائر في العصر الحديث ميلاد حركة إصلاحية واسعة، كان من أهم أهدافها تغيير المجتمع الجزائري، ونشر الوعي الديني والسياسي، والاجتماعي، والثقافي في أوساط الشعب الذي كان مشرفا على الاندثار، ومحاربة السياسة الاستعمارية الصليبية التي كانت تعمل على تغريب المجتمع الجزائري، والقضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية.

وقد استطاعت هذه الحركة الإصلاحية الجادة أن تؤثر كثيرا في مجريات الأحداث، وبخاصة بعد ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي عملت على تجميع الكفاءات العلمية، وتنظيم الجهود وتوحيد الصفوف، وتوجيه الأعمال لمواجهة المشروع الفرنسي القاضي بإبادة الشعب ثقافيا، والقضاء عليه حضاريا.

وفي إطار هذه الحركة الإصلاحية الواسعة تألق نجم كثير من العلماء والمفكرين الذين تركوا آثارهم العميقة في تاريخ الجزائر الحديث وساهموا بقسط وافر في بلورة الأسس النظرية للمشروع النهضوي الحديث في الجزائر، ومن أشهرهم: عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي التبسي، ومبارك الميلي، وابراهيم أبو اليقظان وغيرهم.

وإذا كان هؤلاء العلماء الأفذاذ قد قاموا بواجبهم في حمل لواء النهضة، ومحاربة مخططات الاستعمار الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، فإن حقهم علينا مازال قائما، إلى أن نتصدى لتعريف الأجيال بالمبادئ العظيمة التي آمنوا بها، وبالأعمال الجليلة التي قاموا بها وضحوا في سبيلها بكل ما يملكون من أجل أن يبعثوا دماء الحياة في شرايين الأمة، ويوقظوها من سباتها الحضاري.

ومن هؤلاء الرواد الذين يستحقون اهتمام الدارسيين ، وعناية الباحثين الشيخ الطيب العقبي، العالم الجليل الذي تعددت مواهبه، وتنوعت نشاطاته على مختلف الأصعدة الوطنية والإسلامية، حيث كان خطيبا مفوها، وشاعرا مبدعا، وأديبا بارعا، ومربيا مصلحا، وصحافيا ماهرا، ورمزا من رموز النهضة الكبرى في الجزائر، وهو على حد تعبير الميلي:"داعية الإصلاح وخطيب المصلحين[1]، الذي كان صرخة مدوية في وجه الانحرافات الدينية والأوضاع المتردية.

ولعل مجمل هذه الخصال الحميدة، والخصال الكريمة، وغيرها من المزايا التي حفلت بها شخصية الطيب العقبي هي التي حدت بابن باديس إلى تقريظه بقوله :"من ذا الذي لا يتمثل في ذهنه العلم الصحيح، والعقل الطاهر، والصراحة في الحق، والصرامة في الدين، والتحقق بالسنة، والشدة على البدعة، والطيبة في العشرة، والصدق في الصحبة، إذا ذكر الأستاذ العقبي"[2].

ويدور حديثنا في هذا البحث حول الخطاب النهضوي عند الطيب العقبي، ونقصد: به الفكر الإصلاحي الذي أصل له، ووضع خطوطه العريضة، وحدد له أهدافه ووسائله، مساهمة منه في تأسيس المشروع النهضوي الحديث في الجزائر.

وسنحاول في هذه الصفحات أن نكشف ونرصد هذه الآراء والأفكار النهضوية، ونرسم أبعادها الحضارية من خلال فكر الشيخ الطيب العقبي، باعتباره دعامة أساسية من دعائم الفكر النهضوي الحديث في الجزائر، وشخصية رائدة في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث كان يمثل في نظرنا الرجل الثالث فيها بعد ابن باديس والإبراهيمي، وهو بذلك لا يقل عنهما شأنا ومكانة، وفيمايلي عرض وبيان لأهم هذه الأفكار:

أولا: ضرورة العودة إلى الأصول المرجعية:

يتفق جميع أقطاب الفكر الإصلاحي الحديث في العالم الإسلامي منذ محمد بن عبد الوهاب والشوكاني، مرورا بالأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم على ضرورة الرجوع إلى الأصول المرجعية الإسلامية (القرآن والسنة) والاحتكام إليهما، والاستضاءة بهديهما في مجالات العقيدة والفقه والتربية، ومختلف جوانب الحياة، كخطوة أساسية وحاسمة لانطلاق مسيرة النهضة الإسلامية، واستئناف الحياة الجديدة.

ولم يشذ رجال الإصلاح في الجزائر عن هذا الإجماع، فقد كان الإسلام بمصدريه (الكتاب والسنة) هو الأساس الذي اعتمده المصلحون لإقامة دعائم النهضة الجزائرية الحديثة عليه، وذلك بإعادة سلطان الدين على الأنفس، وصياغتها وفقا لقيمه وتوجيهاته في الحياة، بعيدا عن ضغوط التراث الذي جر تقديسه المسلمين إلى نفق التقليد والجمود والدروشة، ووقف حاجزا بينهم وبين المنابع الصافية الأولى التي استقى منها السلف الصالح عقائدهم وأخلاقهم، وسلوكاتهم.

وقد آمن العقبي بهذا المبدأ إيمانا لا حد له وكان يعتقد أن إصلاح أوضاع الجزائريين يجب أن يتم بالرجوع نظريا وعمليا إلى الإسلام، إلى المقولات التي ثبتت صلاحيتها تاريخيا وارتضاها قلب المسلم وعقله[3].

فقد أدرك أن العودة إلى الدين، واستلهام مبادئه وقيمه، وتمثل عقائده وأخلاقه، والالتزام بأحكامه وشرائعه، يعتبر الشرط الأساس لأي نهوض أو تغيير حضاري.

وكان هذا الاقتناع الراسخ هو الذي جعله يدعو بإلحاح شديد إلى تجاوز الانحرافات العقدية، والعصبيات المذهبة الفقهية، والممارسات الصوفية، والاتصال الحي المثمر بالقرآن والسنة لتفعيل دورهما في واقع المجتمع الجزائري.

وهذا النص الذي بين أيدينا، يوضح أن جمعية العلماء قد بنت أمرها على هذه الحقيقة، وأقامت دعوتها على هذا الأساس المتين، فيحدثنا عن علمائها قائلا:"أما طريقتهم تلك فهي العمل بكتاب الله وسنة رسوله، مالهم من دون الله من وليجة، ومالهم من دونه من ولي ولا نصير، وتثقيف عقول الناس بما في تعاليم القرآن من أخلاق، وما في سنة سيدنا محمدﷺ وسيرته من آداب"[4].

وهو يؤكد هذا الخطاب في قصيدته المشهورة التي نشرها في "المنتقد" والتي أشار فيها إلى مذهبه الإصلاحي قائلا[5]:

حجتي القرآن فيما قلته ... ليس لي إلا على ذاك استناد
وكذا ما سنّة خير الورى ... عدتي وهو سلاحي والعتاد
وبذا أدعو إلى الله ولي ... أجر مشكور على ذاك الجهاد

إن دعوة العقبي إلى ضرورة العودة إلى الأصول المرجعية تعني في واقع الأمر إعادة الفعالية الحضارية للقيم والمعاني الدينية الأصيلة، وتنقيتها من الأوهام والشوائب التي لحقت بها على مر العصور بسبب أهواء البشر حتى يعود الدين إلى نقائه وصفائه كما نزل أول مرة.

كما تعني أيضا محاولة فهم وتفسير مفاهيم الدين في إطار العصر ومستجداته بإعادة ترتيلها على أرض الواقع، أو هي بمعنى آخر:"تفجير طاقات النموذج الأصلي، وإظهار ما يحتويه من إمكانات وتنوعات وطاقات على التوظيف المتعدد في إطار استمرار السياق التاريخي والحضاري العام الذي يمثله أو يندرج فيه"[6].

وهذه العودة إلى الأصول، لا تعني أبدا الانغلاق والتقوقع في شرنقة التراث، والهروب إلى الماضي السعيد، والتغني بأمجاده، والاستئناس بالموتى–كما قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس–

بل هي دعوة صريحة إلى استشراف مستقبل زاهر، وغد أفضل من خلال الارتكاز على الثوابت الحضارية، والانفتاح الواعي على الخبرة الإنسانية والكسب العالمي، والاستفادة منهما وفق ما تقتضيه ضوابط الكتاب والسنة، واقتباس كل ما لا يتعارض مع الخصوصية الحضارية للأمة الجزائرية استجابة لقول الرسولﷺ:"الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها".

ثانيا:محاربة الابتداع وتجديد الاعتقاد:

كان المجتمع الجزائري –غداة ظهور حركة الإصلاح– يعج بالخرافات والبدع والأوهام التي عششت في عقول أبنائه ووجدانهم، وأقام لها الطرقيون نفوذا واسعا في نفوس العامة التي كانت تعود إليهم في دينها ودنياها خاضعة مستسلمة:"وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط ... يتصف بأوصاف الربوبية، فهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يقبض، وهو الذي يبسط وهو منبع كل خير ومصدر كل شر[7].

ومما زاد من وطأة هذه الظاهرة على الجزائريين، تشجيع الاستعمار لهذه الطرق، واحتواؤه لها، ومناصرته لمظاهر البدع التي تقيمها، حتى يكرس بها جهل الأمة وتخلفها الحضاري.وعند ما ظهرت حركة الإصلاح، اهتمت اهتماما ملحوظا بتطهير العقيدة ومحاربة البدع والخرافات التي أصابت المجتمع الجزائري، ودعت إلى الرجوع إلى الإسلام في صفائه الأول، حينما كانت العقيدة في عهد الرسولﷺ وخلفائه الراشدين صافية، نقية، واتباع السلف الصالح في مفهومهم وتطبيقاتهم لها.

لذلك اعتقد العقبي جازما، أن القضاء على البدع والخرافات، لا يتم إلا عن طريق الثورة العارمة التي تستأصل جذورها، وتقتلع أصولها من أرضية المجتمع، فدخل معركة حامية الوطيس مع رموز الابتداع، وخاض ضدهم حربا ضروسا ليبدد جموعهم، ويكشف باطلهم، وينقذ العامة من أسر البدع التي أفسدت فطرتها، والضلالات التي شوهت دينها.

وقد باشر حملته الواسعة ضد البدع والخرافات على صفحات جريدة المنتقد، وكانت مقالاته: تهدم صروح ضلالات هذه الطرقية الكهنوتية صرحا[8]، ثم أسس جريدة "الإصلاح" سنة **1927**، والتي كانت الميدان الرحب الذي جاهد فيه بصدق ليطهر العقائد من أوضاع الشرك، وفساد الاعتقاد، وكان شعارها العمل على تحطيم الخرافات، والأوهام أول واجب لتنوير الأفكار وتهذيب الرأي العام[9].

وجاء في افتتاحيتها قوله:وسنخصص الفصول الطويلة، والاستجوابات الكثيرة لمحاربة البدع التي ألصقت بالدين وإن اعتقادنا الجازم بأن لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، يحملنا على ذلك، ويوجب علينا أن نتحمل من أجله كل أذى، وأن نعمل صباحا مساء لتأييد هذا المذهب، ونصرة القائمين به، ولو كره المبطلون[10].

وقد حفلت مقالات العقبي بكثير من صور الخرافات والبدع التي كان يعج بها المجتمع الجزائري، ومنها مظاهر الشرك الخفي والجلي التي شاعت في أوساط العامة، وهي تدل على مدى الفساد الذي شوه العقيدة، وحرف الدين عن مقاصده السامية، ويصفها العقبي قائلا:"نجدهم يدعون غير الله لما لا يدعى له إلا الله، ويلجأون خاشعين ضارعين إلى سواه، ويصمدون لمن لا يستطيع كشف الضر عنهم ولا تحويلا، ويستعينون بالأموات، وحتى الجمادات والأشجار والنبات والكهوف والمغارات...وقد ينسبون الحول والطول، والضر والنفع، والإعطاء والمنع، لهذه الأشياء، أو لأشياخهم أو للجن فيعظمون ويكبرون غير الله، حتى إنهم يحلفون بذلك الغير هيبة له وخوفا منه، ويقولون بعد هذا كله إنا مسلمون، إنا مؤمنون"[11].

واتسم خطابه في هذا المضمار بشدته وحدة لهجته، وقوة حجته، فكان له وقع كبير على المجتمع، وأثر طيب في مسار النهضة، وقد شهد له معاصروه بصلابة مواقفه، وشجاعته في مواجهة مظاهر الابتداع، ومنهم رفيقه في الإصلاح أحمد توفيق المدني، الذي أكد أن أحب المواضيع إلى العقبي وأفضلها لديه:"هو الدين الصافي النقي، ومحاربة الطرقية، ونسف خرافاتها، والدعوة السافرة لمحاربتها ومحقها"[12].

وتهدف هذه الثورة العارمة التي أعلنها العقبي على البدع والخرافات إلى العودة بالمجتمع الجزائري إلى أصول العقيدة السلفية المستمدة من القرآن والسنة، باعتبارهما المصدرين الأساسيين اللذين بسطا العقائد الإسلامية، وأوضحا معالمها، وقد أشار إلى مذهبه في الحياة مفتخرا بعقيدته السلفية فقال:

مذهبي شرع النبي المصطفى واعتقادي سلفي ذو سداد[13].

كما تهدف أيضا إلى تحرير العقل الجزائري وتطهيره من هذه الرواسب الضالة التي لوثته، وعطلته عن أداء مهمته الحضارية، وإعادة صياغته ليتمكن من ممارسة نشاطه الطبيعي باحتكاكه المباشر بالنصوص المعصومة، وهذه نقلة نوعية في التفكير، ترفع عن كاهل العقل الضغط الذي فرضته عليه التراكمات التراثية، وتخلصه من رواسب الأفكار الضالة، والاعتقادات الخاطئة،

والممارسات الشاذة المنافية لروح الاسلام، وتربطه بنصوص الوحي ليستلهم منها معانيا جديدة، دون الرجوع إلى وساطات السابقين التي كانت تشده إلى الخلف، وتعوقه عن التفكير والإبداع.

لذلك كان إصلاح العقائد وتطهيرها مما علق بها من شوائب الأباطيل والضلالات، موضوعا حيويا أولاه العقبي اهتماما كبيرا، وأفرد له مساحة معتبرة في خطابه النهضوي حتى يكون عمله متكاملا: يهدم الفاسد ليحل محله الصالح، ويفرغ العقل الجزائري من الأفكار المسمومة، والاعتقادات الضالة المريضة، ليملأه بالعقيدة الصحيحة والدين القويم:"وأهم كل مهم وأولاه بالتقديم (عندنا) مسألة العقائد والكلام على تصحيحها، فلا صلاح ولا إصلاح إلا بتصحيحها، فقد أفسد الناس من أمرها ما أضر بالعامة، وسرت العدوى منه حتى لبعض الخاصة، والأعمال كلها نتيجة العقائد تصلح بصلاحها وتفسد بفسادها، وحسبنا قول أشرف المخلوقات (إنما الأعمال بالنيات)، وليس من الممكن جمع كلمة الأمة وتوحيد أفكارها مادامت مختلفة في عقائدها، متباينة في مشاربها وأهوائها"[14].

وطريقة العقبي في صياغة العقيدة وتنشئة الأجيال عليها، تعتمد على مخاطبة العقل والقلب معا حتى يتفاعل المستمع أو القارئ مع خطابه، ويعيش في ظلال الإيمان الصحيح، وفيما يلي نموذج نوضح من خلاله منهجه في غرس القيم الإيمانية، وبناء العقيدة على أسس عقلية صحيحة:"أيها الإنسان العاقل، ويا أيها المخلوق المدرك الحساس المفكر، هل فكرت يوما ما في نفسك وفي الآفاق؟ وهل اهتديت بتفكيرك إلى الكريم الخلاق؟ هل أدركت في وقت من الأوقات مم خلقت ولم خلقت؟ وهل تبين لك الحق ببرهانه وقام لديك الدليل الاقناعي، والشاهد الحسي بما أوجب لك العلم الصحيح، فآمنت ذلك الإيمان الصحيح، فكنت من الموقنين، وأسلمت وجهك وقلبك لله رب العالمين"[15].

وقد ظل العقبي يرمي الطرقية والمبتدعة بسهامه النارية، ويجتهد في توضيح معالم العقيدة السلفية للجمهور الجزائري طوال سنوات العشرين والثلاثين، إلا أن موقفه من رجال الطرق والزوايا تغير ابتداء من أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات، وبالتحديد منذ انسحابه من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد خلاف بينه وبين العلماء، فخفت حدة لهجته تجاه الطرقية، وهدأت ثورته، وبدا مجاملا لهم في اعتقاداتهم وممارساتهم:"أما أرباب الزوايا والمرابطون والطرقيون، فلهم فكرهم، واعتقادهم، ولنا فكرنا واعتقادنا، وحرية الاعتقاد والضمير حق مشاع بيننا وبينهم، وإذا كانت فكرتنا غير فكرتهم، فإننا لا نبني على ذلك أنهم لنا أعداء، ونحن الذين لم نعاد اليهود ولا

النصارى بل استطعنا أن نصانعهم، ونتصافى ونتصافح معهم، وهم على غير ملتنا الإسلامية وشريعتنا المحمدية"[16].

إلا أن هذا التغير الذي طرأ على خطاب العقبي، لا يطعن في تاريخه المجيد، ولا يقلل من شأن الجهود الجبارة التي بذلها في هذا الميدان، لأن الطرقية –في هذا الوقت الذي مال فيه العقبي إلى مهادنتها لأسباب تبدو لنا غامضة– كانت قد خسرت كثيرا من مراكزها، وفقدت نفوذها العريض، وهيمنتها الروحية التي كانت تتسلط بها على الشعب، وانحسر تأثيرها في الحياة العامة، وانزوت في أماكن قليلة، لا يمكن أن تشكل منها خطرا على مستقبل الجماهير المتطلعة إلى الحرية والاستقلال، وانكسرت شوكتها التي كانت غصة في حلق الشعب والمصلحين قبل عقدين من السنين.

وهذه النتائج الباهرة التي أسفرت عنها المعركة الطاحنة بين الطرقية وحركة الإصلاح إنما كانت بفضل علماء الجمعية، وفي مقدمتهم الطيب العقبي الذي أسهم بخطابه النهضوي الحار الصادق والشديد في إحداث ثورة تحريرية كبرى على مستوى الأفكار والمفاهيم، هزت العقلية الجزائرية الحديثة التي أصبحت ترفض الخرافة والشعوذة والدجل، والجمود والتقليد، وتؤمن بالبرهان والدليل الشرعي، والعقلي طريقا للاقتناع، وهذا –في حد ذاته– يعد تحولا نوعيا مهما في تاريخ الفكر الجزائري الحديث.

ثالثا: الانفتاح الحذر على الغرب.

نقصد بالانفتاح الاستفادة من الإنجازات العلمية والفنية، والتنظيمات الإدارية، والوسائل والخبرات العامة الحديثة التي أبدعتها الحضارة الغربية، وذلك باقتباس العلوم الطبيعية والزراعية والتقنية كعلوم الصناعات، والتجارة، وعلوم الاتصال والمواصلات، وعلوم الطب والصيدلة، وعلوم طبقات الأرض ومعادنها، وما إلى ذلك من العلوم والمعارف التي تتصل بالمادة وظواهرها.

فهذه العلوم التي تهتم بدراسة المادة، وتتخذ من الظواهر الطبيعية والكونية موضوعا لها، هي–في الحقيقة– معارف مشتركة بين جميع البشر، ليست لها جنسية خاصة، لأنها تتميز بحياد مناهجها ونظرياتها، وبخضوعها للتجربة الحسية، فقوانين عملها لا تختلف مهما اختلفت العقائد والأجناس واللغات، وهي تكون ما يسمى بالمشترك الإنساني العام الذي ينبغي الاستفادة منه استجابة لتطور الحياة.

ذلك أن الانفتاح قانون طبيعي يحكم حياة الأمم والشعوب، ويفرض عليها أن تتفاعل فيما بينها عبر جسور الاتصال والتواصل لتحقيق عملية التأثر والتأثير، والأخذ والعطاء ولا تستطيع أية أمة أن تنغلق على نفسها، وتتقوقع داخل ذاتها، وتقطع روابطها بالعالم الخارجي لأن ذلك سيؤدي بها إلى الموت المحتم، ولأن الانفتاح على الآخرين سنة كونية ثابتة، لا سبيل إلى مغالبتها أو تجاوزها.

والطيب العقبي –في خطابه النهضوي– يؤمن بهذا القانون الاجتماعي الذي يفرض التفاعل بين الأمم والشعوب، لذلك نجد أن مفردات هذا الخطاب تتضمن دعوة صريحة إلى ضرورة الاستفادة من الكسب الحضاري والخبرة الإنسانية، من أجل توظيفهما للنهوض بالمجتمع، وهو يؤكد هذا الاقتناع في لهجة حارة قائلا:"فمرحبا بكل تمدن نرى من نتائجه استتباب الأمن واستبحار العمران، وتمهيد الطرق والمواصلات، وسرعة السير إلى الأمام، واستثمار ما أودع الله في الكون من خيرات وكنوز، ومرحبا بالتمدن الذي يحفظ مصالح بني البشر المشتركة مرحبا، ومتى كان قوام هذا التمدن العصري وروحه الحقيقي إنما هو العلم النافع فمرحبا به ألف مرة ومرة ومرحى لأنصاره ومؤازريه"[17].

وهذا الخطاب الانفتاحي لايتناقض أبدا مع دعوته الملحة إلى ضرورة العودة إلى الأصول المرجعية الدينية كأساس مهم للنهوض، لأنه كان يهدف من وراء هذه الدعوة إلى الحفاظ على ثوابت الأمة الحضارية، وحمايتها من الغزو الثقافي المدمر الذي يستهدف كيانها، وهو بإحداث هذا التزاوج بين الفكر السلفي والانفتاح على الغير، يثبت أن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام عقبة في وجه التقدم المادي، والتسخير الأمثل لقوى الكون، ومسايرة العقل البشري في تطوره الدائم، كما أشاع عنه خصومه وأعداؤه:"وما وقف دين الإسلام في يوم من الأيام –ولن يقف أبدا– في طريق تمدن مبدؤه العلم ومنتهاه العمل الصالح، وإسعاد بني آدم بما تصبو إليه قلوبهم وتتمناه نفوسهم في كل عصر وحين وأنه هو الدين الوحيد الذي يساير أدوار الحياة، ويسير مع كل مدنية ترتكز على قوتي العلم والحق"[18].

بل إنه يرى في مظاهر المدنية الغربية التي بلغت شأنا كبيرا في عمارة الأرض واستخراج كنوزها، وفي التوسع في طلب العلم وتشجيعه ونشره، وفي توفير أسباب الرخاء والرفاهية لأبناء البشر مظهرا آخر لتعاليم الإسلام الانفتاحية، ويقرر أن الشعوب الأوروبية المتقدمة هي بكل ذلك أقرب إلى روح الإسلام من أهله الذين أهملوا العلم والعقل، وتركوا السعي في مناكب الأرض والعمل الدؤوب لتحقيق صفة الخلافة في الأرض، وركنوا إلى الكسل والتواكل فسقطوا في متاهات التقليد

والجمود والدروشة:"ومن عرف الإسلام بحقيقته، ونظر إلى حال أمم الغرب المتقدمة اليوم في أعمالها وحرية تفكيرها بما نسميه (تمدنا وحضارة) حكم لأول وهلة بأن هذه الأمم هي إلى دين الإسلام العملي أقرب من أهله إليه، وفي أخذها بوجوه هدايته في جلب المنافع ودرء المضار في هذا العصر أسبق من منتحليه ومعتنقيه، إذ الإسلام دين علم، لا دين بطالة وكسل، وأن لكل ما نشاهده من آثار تمدن العصر النافعة صلة قوية وعلاقة متينة يمت بها إلى تعاليم القرآن ودين الإسلام"[19].

والعقبي إذ يقرر هذه الحقائق –في حماسة واقتناع– إنما يستند إلى الإسلام في جوهره الإنساني والذي كان منذ أول يوم حركة انفتاحية، حين دفع أتباعه إلى السير في مناكب الأرض واكتشاف آثار المدنيات السابقة، والاعتبار بمصائرها، واقتباس النافع منها:"إذ الإسلام...يسير مع العقل والعلم جنبا لجنب في كل آن ومكان، ويساير المدنية الصحيحة في كل أدوارها وأطوارها النافعة لبني الإنسان، ولم يعرف الإسلام بغير هذا لا في القديم ولا في الحديث"[20].

ولعل أوضح مثال على ذلك تبني عمر بن الخطاب لنظام الدواوين الذي هو خبرة إدارية بيزنطية[21]، وقد ظلت الدواوين تكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام باللغة الرومية وفي مصر باللغة اليونانية، إلى أن جاء عبد الملك بن مروان فعرب دواوين العراق والشام واستكمل ابنه الوليد بن عبد الملك تعريب دواوين مصر[22].ومن الأمثلة على هذا الانفتاح أيضا، استلهام عمر بن الخطاب للتجربة الفارسية في تقدير ضريبة الأرض الزراعية [23]، واحتضان الخلفاء المسلمين لحركة ترجمة العلوم الطبيعية والتجريبية، وتشجيعهم لها بمختلف الوسائل، مما أتاح للمسلمين انفتاحا علميا واسعا على مختلف الحضارات السابقة.

وقد كان الاجتهاد هو الآلية الضرورية والأساسية التي تم بموجبها الانفتاح على الكسب الإنساني، والخبرة البشرية في جميع المجالات، وبواسطته أعطى الأئمة المجتهدون الكبار–في العهود الإسلامية الزاهرة– الدليل القوي على مرونة الشريعة الإسلامية وقدرتها الفائقة على استيعاب المحدثات بما مارسوه من اجتهاد مكنهم من التحكم في زمام الحياة وتسيير دفتها نحو الخير والعدل دون أن تصطدم مع سنة التطور والتغيير.

لذلك يرى العقبي أنه لابد من إعادة تحريك العقل الاجتهادي، ليمارس نشاطه الطبيعي في التفاعل مع الحضارة الغربية استنادا إلى القواعد الأصولية التي بنيت عليها أحكام هذا الدين مثل:"درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة"و"لا ضرر ولا ضرار"و"الضرورات تبيح

المحذورات"و"سد الذرائع"[24]. وغيرها من القواعد، لأن الإسلام "أطلق للعقل عقاله ومنحه حرية التفكير بل حثه على النظر والاعتبار"[25].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن خطاب العقبي النهضوي في مجال الانفتاح على الحضارة الغربية، لم يكن عائما ومطلقا، فهو لا يدعو إلى الارتماء في أحضان أوربا والإقبال على مدنيتها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها كما فعل بعض أنصار التحديث[26] في العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، بل كان يدعو إلى الاقتصار في الاقتباس على الجوانب المادية، والعلمية، والمعرفية والخبرات الإنسانية، باعتبارها مشتركا إنسانيا عاما لا جنسية له، ولا وطن، ولا عقيدة ويرفض –في المقابل–الجوانب الإيديولوجية، والأخلاقية التي تعتبر خصوصية حضارية[27] لكل أمة: وليس التمدن عندنا بتلك المظاهر البراقة، والصور الرائعة الخلابة، في حال ترتكب فيها الأفعال المخزية، والأعمال المردية، كلا، ولكنه علم وعمل صالح في سعادة ونظام، وأمن وسلام[28].

ذلك أن لكل أمة معادلتها الاجتماعية، وموروثها الثقافي الذي تستمد منه تكوينها النفسي وسماتها الخلقية، وتركيبها الاجتماعي، وهو جزء طبيعي منها لا يمكن فصله، أو محوه، أو تجاهله ومتى وردت عليه مفاهيم إيديولوجية غريبة زعزعته وهددت كيانه بالاندثار.

وفي ضوء هذا التصور الواضح لحقيقة الانفتاح وضوابطه، ينتقد العقبي الجانب الإيديولوجي للحضارة الغربية، ويتهمها بتعذيب الإنسانية والإساءة إليها بما شاع في مجتمعاتها من فوضى أخلاقية، وإسفاف وإباحية، وتفكك عرى الأسرة، وأنانية واستغلال نقلتها إلى الشعوب التي استعمرتها أو هيمنت عليها اقتصاديا، وفرضتها عليها، فنتج عن ذلك مآس كثيرة، وانحراف عن الفطرة، وتمرد على الطبيعة البشرية:"نرى في تمدننا اليوم رغم حسناته الكثيرة مساوئ لا يحسن السكوت عليها، ولا يسوغ للمتشبع بالعقلية الإسلامية قبولها، والموافقة عليها بحال من الأحوال، ذلك لما فيها من ضرر محقق وفساد للأخلاق تتبرأ منه وتتنزّه عنه شرائع الأخلاق، وكل ما تشتكي منه الإنسانية المعذبة وتتألم له من هذا التمدن العصري، وقد تتحمله مكرهة وتتجرعه ولا تكاد تسيغه، لهو مما حذر الإسلام منه ونهى عنه"[29].

ومما لاشك فيه أن خطاب العقبي الانفتاحي الذي يتسم بالحذر، فيه كثير من الأصالة وعمق النظر ونفاذ البصيرة، مما يدل على امتلاكه لتصور شمولي للواقع الإسلامي المتردي، وفهم دقيق للدين ومقاصده وتعاليمه التي جاءت لتكون خاتمة الشرائع، وقد برهن –بموقفه المتميز هذا في وقت كان قبول الحضارة الغربية، أو رفضها

موضوعا يثير الكثير من النقاشات وردود الأفعال والمواقف المتطرفة– أنه ينتمي إلى تيار وسط معتدل، يرفض جمود المحافظين وجحود التغريبيين، وهو التيار الذي ينبني خطابه على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، الانفتاح على العالم المعاصر دون الذوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل، والتشديد في الأصول والتيسير في الفروع.

رابعا: اعتماد الإعلام الجماعي المنظم:

لقد تركت الأفكار النهضوية التي رفع لواءها في المشرق العربي جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومن بعدهما رشيد رضا، تأثيرها الواضح في النهضة الإصلاحية التي شهدتها الجزائر، فقد وصل صداها–في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين– وتبنتها نخبة من العلماء الذين مثلوا الجيل الأول من المجددين، من أمثال صالح بن مهنا (ت **1907**)، وعبد القادر المجاوي (ت **1913**)، وعبد الحليم بن سماية (ت **1925**)، ومحمد بن الخوجة (ت **1915**)، والذين كانت تربطهم بالمشرق روابط فكرية وروحية قوية.

وقد كانت الصحافة العربية المشرقة إحدى أهم الوسائل التي انتقل بها الفكر النهضوي الحديث من المشرق إلى الجزائر، هذا على الرغم من الرقابة الصارمة التي كانت تخضع لها الجرائد والمجلات الواردة من المشرق العربي، والتي كانت تتعرض –بشكل دائم– للمصادرة من طرف الاستعمار الفرنسي الذي اجتهد في أن يضرب طوقا من العزلة حول الجزائر، إلا أن ذلك لم يمنع من تسللها ووصولها إلى أيدي العلماء المثقفين، ولعل أشهر هذه الجرائد التي كان لها قراء دائمون في الجزائر"العروة الوثقى" و"المؤيد"و"اللواء"و"المنار" وغيرها، من الجرائد والمجلات التي كانت لسان حال دعاة الفكر النهضوي.

وقد تعزز هذا التأثير بزيارة محمد عبده إلى الجزائر عام **1903**، حيث التقى ببعض هؤلاء العلماء، وفسر سورة العصر، ووجد لديهم استجابة طيبة لأفكاره الإصلاحية، وإقبالا قويا عليها، مما حدا به إلى القول أنه:"يرجو بذلك للبلاد حياة علمية سعيدة، ونهضة إصلاحية قريبة"[30].

وقد تنبهت جريدة (LE TEMPS) الفرنسية الناطقة آنذاك بلسان وزارة الخارجية إلى التأثير الواسع الذي لقيته الأفكار النهضوية المشرقية في الجزائر، وسجلت حفاوة الاستقبال الذي حظي

به محمد عبده، وقالت:"إنه وجد له في تونس والجزائر حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم، وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار"[31].

وقد حاولت هذه الفئة من المصلحين أن تبعث يقظة فكرية في الجزائر عن طريق التدريس والإرشاد في المساجد، والتعليم والتربية في المدارس، والكتابة الصحفية، وتأليف الكتب في مختلف علوم اللغة والدين والأدب، إلا أن جهودها لم تتمكن من إحداث آثار مهمة في واقع المجتمع الجزائري، ولم يكن لها صدى بعيد في أوساط الأمة التي كانت تكبلها أغلال الجهل والفقر واليأس.

وقد تحدث الطيب العقبي عن جهود هؤلاء المصلحين الأوائل في محاولة لتقييمها، والبحث عن الأسباب والعوامل الكامنة وراء إخفاقها، وقلة مردوديتها، وضعف تأثيرها قائلا:"وهؤلاء القليل لم تظهر لأعمالهم من آثار تذكر ولا كان لصوتهم الخافت في مجموع الأمة من صدى ولا تأثير، ذلك لأن أهل هذه الطبقة الذين هم أقل من القليل لم تتوحد كلمتهم إذ ذاك ولم يتحد لهم برنامج في عملهم"[32].

ومما سبق، يتضح لنا أن العقبي يؤكد بأن العلة الأساسية التي كانت وراء هذا الفشل هو اتسام جهود العلماء المصلحين بالفردية، لأن العمل الفردي –في نظره– غير قادر على سد الثغرات التي يمكن أن تسدها الجهود الجماعية، لكونه محدود المدى، طفيف الطاقة، وقتي التأثير لايستطيع إحداث انقلاب جذري في نظام المجتمع، وإعادة بنائه على أسس بديلة.

لذلك كان الإصلاح الجماعي المنظم –في خطابه النهضوي– قاعدة أساسية، وشرطا ضروريا تتطلبه العمليات الإصلاحية الكبرى:"ولقد علموا أن جهود الفرد محدودة، وعمله –وإن اتحد مع أمثاله في التفكير والعقيدة– لا يكاد يأتي بالنتيجة المحققة، ويوصل إلى المراد بسرعة.

هذا إذا كانت الغاية المطلوبة مما ترجع فائدته إلى الفرد، فكيف إذا كان النفع المطلوب والفائدة المقصودة لأمة كاملة ؟ وهيهات، هيهات الوصول إليها دون قيام الجماعات، واتحاد الأفراد والجمعيات، ومواصلة العمل من الجميع والسير المتحد في طريق الوصول لتلك الغاية الشريفة"[33].

ويبدو من خلال استقرائنا لآراء علماء الجمعية[34]، أن معظمهم يؤمن بأهمية الإصلاح الجماعي المنظم في نجاح الجهود الإصلاحية الكبرى، وهذا الانسجام الفكري كان من أهم العوامل في جمع كلمتهم، وتنسيق جهودهم، وتوجيه أعمالهم، وتوحيد صفوفهم في إطار منظمة،

جسدت تجربة رائدة في مجال العمل الجماعي الإصلاحي المنظم في العالم الإسلامي في العصر الحديث:"فلهذا رأوا –وهم فئة قليلة وطائفة غير كثيرة– أن يلفتوا –قبل مباشرة العمل– أنظار البقية الصالحة في الأمة إلى تأسيس جمعية علمية دينية، ترشد الأمة إلى تعاليم الدين الصحيحة، وتهديها بالقرآن وآياته الحكيمة إلى التي هي أقوم، كما تكون مظهر وحدتهم الدينية وعنوان اتحادهم في سبيل الدعوة إلى الإيمان وصالح العمل"[35].

ونحسب أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين –في اعتمادها على الإصلاح الجماعي المنظم كقاعدة أساسية في التغيير الحضاري، قد اختلفت تجربتها عن التجارب الإصلاحية المشرقية التي غلب عليها الطابع الفردي، حيث نحت نحو العمل المؤسساتي المبني على التنظيم والتعاون والتنسيق والتشاور، وتوزيع المهام، لأن التحديات الضخمة والخطيرة التي كانت تواجه الأمة هي التي فرضت عليها هذا الأسلوب في الإصلاح.

وفي ختام هذا الحديث يتضح لنا أن الطيب العقبي قد استطاع أن يقدم خطابا نهضويا اتسم في كثير من مضامينه و طروحاته بالأصالة و الجدة والعمق، مما أهله لأن يكون في طليعة المفكرين الجزائريين المحدثين الذين أسهموا في بلورة الأسس النظرية للمشروع النهضوي الحديث في الجزائر.

الهوامش

1– رسالة الشرك، مبارك بن محمد الميلي، ص 284.

2– رسالة الشرك، مبارك بن محمد الميلي، ص 284.

3– الشهاب، ع 158، 2 أوت .1928

4– راجع في هذا المضمار: سلسلة مقالات العقبي التي نشرها في البصائر الأولى تحت عنوان الإسلام دين الله الخالد.

5– جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الطيب العقبي، البصائر، ع 46، س1، 4 ديسمبر 1936.

6– المنتقد، ع8، 20 أوت .1925

7– الاجتهاد التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، محمد فتحي الدريني وآخرون، ص69–.70

8– كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني، ص .376

9- محمد الطاهر فضلاء. من أعلام النهضة الوطنية: الشيخ الطيب العقبي. الثقافة، ع 66، نوفمبر- ديسمبر1981، ص .42

10- الإصلاح، ع1، 8 سبتمبر .1927

11- الطيب العقبي، الإصلاح، ع1، 8 سبتمبر1927، الافتتاحية.

12- يقولون وأقول. الطيب العقبي، الشهاب، ع 135، 16 فيفري1927، وراجع أيضا: الطيب العقبي. محمد الطاهر فضلاء، ص153.

13- حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، القسم الثاني، ص.183

14- المنتقد، ع8، 20 أوت .1925

15- "سيل البدع الجارف" الطيب العقبي، الإصلاح، ع2، 5 سبتمبر .1929

16- "الإسلام دين الله الخالد" الطيب العقبي، البصائر، ع3، 17 جانفي .1936

17- الإصلاح، ع 21، س13، 5 أفريل .1940

18- الطيب العقبي، محمد الطاهر فضلاء، ص .146

19- المصدر نفسه، ص .146

20- الطيب العقبي، محمد الطاهر فضلاء، ص 144-.145

21- المصدر نفسه، ص .145

22- تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مج2، ص .570

23- المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، د.إبراهيم سلمان الكروي، ود.عبد التواب شرف الدين، ص85، .86

24- الغزو الفكري، د.محمد عمارة، ص .209

25- الطيب العقبي، محمد الطاهر فضلاء، ص .143

26- المصدر نفسه، ص .144

27- من أمثال كمال أتاتورك في تركيا، ولطفي السيد وسلامة موسى. وطه حسين فيي. مصر وجماعة النخبة في الجزائر وغيرهم.

28- الغزو الفكري، محمد عمارة، ص17-.22

29- الطيب العقبي، محمد الطاهر فضلاء، ص.146

30- الطيب العقبي، محمد الطاهر فضلاء، ص145-.146

31- حاضر العالم الإسلامي، ستودارد لورثروب، ج2، ص 295.

32- تاريخ الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا،ج1، ص 871.

33- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الطيب العقبي، البصائر،ع 46، 4 ديسمبر1936.

34- المصدر نفسه.

35- راجع في هذا المضمار: تفسير ابن باديس، ص559، عيون البصائر، الإبراهيمي، ص224، ومقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، العربي التبسي، جمع وتقديم: شرفي أحمد الرفاعي، ص118، وجريدة (وادي ميزاب). إبراهيم أبو اليقضان،ع 31، 13 افريل 1927.

36-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الطيب العقبي، البصائر،ع 46، 4 ديسمبر1936.

راجع في هذا المضمار: تفسير ابن باديس، ص559، وعيون البصائر، الإبراهيمي، ص224، ومقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، العربي التبسي، جمع وتقديم: شرفي أحمد الرفاعي، ص118، وجريدة (وادي ميزاب). إبراهيم أبو اليقضان،ع 31، 13 افريل 1927.

(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) الطيب العقبي، البصائر،ع 46، 4 ديسمبر 1936.